

## الجامعة و الإبداع الفكري :

### أمراض تصيب الجامعة فتعيقها عن الإبداع

أ.د. مضر خليل عمر

في هذا المقال نتعرض لبعض نقاط الوهن في النظام التعليمي في العراق ، و دور الجامعة في عملية النهوض في البلد و معالجة مشكلاته . فالجامعة هي الكيان الذي يقود العملية التعليمية و يحدد مسارها ، وهي لا تقوم بذلك ما لم تكن الأقسام العلمية فيها قد أخذت دورها في عملية التعليم والتدريب والأخذ بكل مفيد في ميدان تخصصها . وما الكليات إلا هياكل تنظيمية تربط خيوط العمل ومساراته و تجمعها لتصب في تحقيق ستراتيغ الجامعة . إنها الحلقة الوسط بين القائد الميداني (الأقسام العلمية) و القائد الاستراتيجي (رئاسة الجامعة) . وبين الاثنين ، (الأقسام العلمية ورئاسة الجامعة) تأتي الوحدات والمراكز البحثية لتجمع التخصصات العلمية و تجسرها لتتجاوز الحواجز الإدارية التي تفرضها الكليات . إنها إضافات نوعية تحقق الاستراتيج و تقود العملية البحثية نحو التجديد و الإبداع ، وبدونها تبقى مبادرات الأقسام العلمية في التجديد والإبداع مبعثرة و محدودة التأثير . فالنهضة العلمية ترتكز على : استراتيج رئاسة الجامعة ، و فاعلية الأقسام العلمية ونشاط الوحدات والمراكز البحثية .

لقد تعرض النظام التعليمي في العراق إلى تجارب مريرة ، وتعديلات و تحويلات وإضافات موضوعية ولا موضوعية بحيث فقد (النظام) مفهومه العلمي كنظام . أصبح مجموعة أشلاء مرتبطة رسمياً ببعض ، مهامها متشابهة ومتقاربة دون أن تكون هناك سمات حقيقية مميزة لكل عنصر (مرحلة) من عناصر هذا النظام . وأصبح (الاستثناء) قاعدة تعتمد لسن التعليمات والضوابط ، فانطمرت القاعدة الأساس تحت ركام هائل من الغريب و العجيب من تعليمات و مداخلات مسخت شخصية البلد وإمكاناته البشرية . لقد غرق النظام التعليمي في العراق في مستنقع (لزوم ما لا يلزم) ، وأصبح أشبه بمداس أبي القاسم الطنبوري . المداس الذي لو لبسه أبو القاسم و تسابق مع سلحفاة مريضة لما ضمن الفوز فيه . فهل يمكننا هذا (النظام) من المشاركة (وليس الفوز) في سباق علمي في القرن الحادي والعشرين ؟ فالعلة الأولى تعود إلى النظام التعليمي وما آل إليه من حال . وقد انعكس هذا بشكل جلي على الجامعات و دورها في عملية الإبداع و التجديد .

والأدهى والأمر ، أن هذا (النظام) بدلا من أن يرقى ليقود المجتمع سقط هو في وحل مشاكله الاجتماعية وأمراضه السياسية ، وبالتالي صار صورة بائسة من مجتمع يعاني الكثير ، ولا يعيش إلا اللحظة التي هو فيها بما فيها من ألم و بؤس و فاقة . فهل يعالج المريض المحيطين به قبل أن يعالج نفسه ؟ وهل ينهض من كبوته وهو (متربع على الأرض) دون أن يحرك ساكن لينهض ويستقيم على الطريق القويم ؟ وما هي الأمراض التي انتقلت إلى جسم الجامعة لتتخره و تعيقها عن دورها الريادي ؟ هذه وجهة نظر شخصية ، نابعة عن معاناة و معاشية يومية لبعض أعراض هذه الأمراض .

الجامعة مركز إشعاع فكري ومنبر علمي لا يضاهي ، ولا يحرك هذا ويشحذه ويعلي مراتبه إلا الحث المستديم للتجديد والإبداع و مواجهة علمية وعملية للصعاب والمشاكل ، والنظرة الموضوعية للأمور و الاستراتيجيات الاستباقية للمستقبل القريب والبعيد . وعندما تنق الجامعة أسيرة التدريس (التقليدي) والنظرة المزاجية للأمور ، و تنفيذ (البريد الرسمي) بأقل جهد ممكن ، حينها تهبط إلى مستوى الدراسات التمهيدية (ما قبل الجامعة) . وحينها لا حاجة لتسميتها ب(الجامعة) لأنها ثانوية مطورة (إن وصلت إلى مستواها) . والجامعة ليست (موقع اجتماعي) يتحلى به العاملون فيها ، بل مسئولية جسيمة ترتبط بمستقبل البلد بأكمله . فكما تكون الجامعة يكون مستقبل البلد ، لأنها معمل يؤهل قادته و العاملين فيه . إنها تؤطر تفكيرهم وتبنيهم علميا وتربيتهم وتمنحهم سياقات عملهم ، و تصوغ أهدافهم الحياتية و السياسية . إنها مرآة المستقبل ، وبدون رتوش . فهل فكر في هذا العاملون في الجامعات العراقية ؟ وجامعة ديالى على وجه الخصوص ؟ أتمنى ذلك وادعوا ربي لأن يتحقق فهو سميع الدعاء ومجيبه .

من هذا المنطلق ، ومن باب الحرص على أن تكون الجامعة بالمستوى العلمي و الوطني المنشود ، وأن تكون مركز إشعاع وميدان إبداع تطرح هنا بعض الأفكار والآراء للمناقشة القصد منها تأشير ما يعتقد بمناطق خلل وضعف في بنية الجامعة (أو أمراض أصابتها و أثرت على صحتها و عملها) . وأتمنى أن يكون الصدر (والفكر) منفتحين رحبين لتقبل وجهة النظر هذه ، السنا في مجتمع ديمقراطي ؟ وفي البدء من الضروري توضيح بعض المفاهيم التي ترد في هذا المقال كي لا يكون هناك لبس في فهمها وتكون لغة التخاطب واضحة و مشتركة ، وهذا سياق علمي و منهج بحثي معمول به في الجامعات و ما ينتج عنها من دراسات و بحوث . والمفاهيم هذه لها صلة ببعض الأمراض التي قد تصيب الأفراد والمجتمع ، والتي وصلت للجامعة فأصابت منها ما أصابت .

**التفكير اللاعلمي** ، يعرف فؤاد زكريا التفكير العلمي بأنه "طريقة في النظر إلى الأمور تعتمد أساسا على العقل والبرهان المقنع بالتجربة أو بالدليل وهي طريقة يمكن أن تتوافر لدى شخص لم يكتسب تدريبا خاصا في أي فرع بعينه من فروع العلم ، كما يمكن أن يفتقر إليها أشخاص توافر لهم من المعارف العلمية حظ كبير ، واعترف بهم المجتمع بشهادته الرسمية" . وهنا مربط الفرس كما يقولون ، فهل كل حامل لشهادة (أكاديمية) يمتلك التفكير العلمي ؟ وان امتلكه (البعض) هل يعتمدوه في العمل الجامعي ؟ وفي حياتهم اليومية ؟ ويشير زكريا إلى أن التفكير العلمي شيء وتكديس المعلومات العلمية شيء آخر . ويؤكد على انه " الحد الأدنى الذي لا مفر من توافره في أي مجتمع يود أن يكون له مكان في عالم القرن الحادي والعشرين" (مقدمة كتاب التفكير العلمي ، 3 عالم المعرفة ، 1977) . فالمرض الأول هو مرض التفكير اللاعلمي ، الابتعاد عن العلمية و الاكتفاء بالشكليات الرسمية و الألقاب الفارغة من محتواها لأسباب عديدة . ألا نعاني من حملة الشهادات و الألقاب العلمية ممن لا منطق لهم و لا منهج في التفكير والعمل ؟

**اللاموضوعية** ، العلم موضوعي بطبيعته ، فهو مبني على القياس والتقويم ، و مقاييسه معيارية ليس فيها محاباة لأحد ولا تخوف من زعل (س) ولا يقصد بها إرضاء



(ص). وتقويماته هدفها الإصلاح و التقدم لا الإبقاء على الحال كما هو دون تغيير . والموضوعية رديف للعدالة ، والعدالة أقرب شيء للتقوى ، و التقى لا يخاف لومة لائم ، ويخرجه الله سبحانه وتعالى من المصاعب و المزالق من حيث لا يحتسب . فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ولكن من يخاف سطوة (س) و يتجنب مواجهة أطماع (ص) يقع في حبال مخاوفه ويبقى يدور في فلك لا يخرج منه سالما . اللاموضوعية مرض عضال ، أصاب الجامعة في مكامن خطيرة ، منها الإدارة ، التقويم العلمي لأغراض النشر و التعزيد والترقية ، التكاليف العلمية والمهنية ، ومناقشة الرسائل والاطاريح والعديد غيرها . انه ثاني اخطر مرض يصيب الجامعة .

**قصر النظر** ، ولا يقصد به بدنيا ، بل كما يعبر عنه في كثير من الأحيان ب ( النظر بحدود أرنبه الأنف) ، حصر النظر بالقرب المباشر وليس البعيد . الانشغال بما هو آني دون التفكير بما بعده ، العيش للحظة الراهنة و تناسي المستقبل ، القبول بالقليل الذاتي المباشر و الابتعاد عن الكثير العام الشامل . والمصابون بهذا المرض ليس لهم تفكير علمي ، ولا ستراتييج بحثي ، و مرهونين بالمنصب الذي تولوه وبالمصالح الذاتية الضيقة . ورئيس القسم عندما ينظر إلى قسمه فقط دون شمول مصلحة الأقسام الأخرى في الكلية ، وعميد الكلية عندما يضيق بصره ليتقزم بكليته متناسي انه جزء من جامعة ، وغيرهم من هم على هذه الشاكلة ، أولئك مصابون بقصر النظر و العمى المؤقت . وهم مأساة الكليات والجامعة لأنهم يغرقون أنفسهم والآخرين في كل ما هو بعيد عن العلم والموضوعية وكل ما فيه نفع عام دون أن يعوا ما يفعلون . فالسفينة أكبر من القسم و أوسع من الكلية ، إنها الجامعة .

**التفكير السقيم** ، المرض قد يكون بدنيا أو نفسيا ، و الأصعب أن يكون فكريا مزمننا يصل إلى حالة العوق الفكري الدائم . تحدث هذه الحالة عندما يكون الشخص (بغض النظر) عن مرتبته (العلمية) أو الوظيفية التي يشغلها منهمك في النظر إلى الآخرين من زاوية مقبنة ويبحث عن كل شيء يثير من خلاله المشاكل و الصعوبات على الآخرين . أنه مشكلة متحركة ناتجة عن عقل مريض يؤدي إلى تفكير سقيم وسلوك مهين . وهم في الجامعة كثر لأن وجودهم فيها ناتج عرضي لسباق الحصول على شهادة أكاديمية ليس إلا . فهم يحملون (الشهادة) ولكنهم ليسوا مؤهلين لها لا علميا ولا قيميا . إنهم طبول فارغة تصدع بكل ما لا يفيد و تنقر كل لحن يثير الانتباه إليهم . إنهم يلهثون وراء المناصب و ويكون على الامتيازات و يقفون حجر عثرة أمام كل تغيير و تقدم . إنهم مصيبة الأمة في أبنائها . إنهم (فيروسات) تعطل عقل الجامعة وتشل مرافقها عن العمل والعطاء .

**العقم** ، لا يقصد به (جنسيا) ، بل كل توقف عن إنتاج الجديد ، فممك أن يكون هناك عقم فكري عندما يتوقف الإنسان (أو المجتمع) عن التفكير الإبداعي . والجامعة عندما تعتمد التدريس بدرجة عالية (وبصغ بالية) ، وتكون أبحاث العاملين فيها مكررة غير مبدعة ، وتكون غير موجهة لمعالجة مشاكل يعاني منها المجتمع ، حينها تكون الجامعة عقيم ، أو يسود فيها العقم الفكري . وهذه هي الطامة الكبرى فحينها يقرأ على مستقبل البلد السلام .

ليس الهدف نشر الغسيل القذر كما يقال ، بل لا يمكن أن نعالج الواقع ما لم نواجهه ، فغمر النعامة رأسها في الرمل لا يحميها من مفترسيها ، بالعكس يسهل الأمر عليهم . وأيضا ليس المقصود به التشهير بالبعض ، فمعاذ الله أن يكون القصد هكذا ، ولكن الإشارة إلى نماذج يعتقد بان لها دور مباشر وغير مباشر ، مقصود وغير مقصود في عملية الإبقاء على حال التخلف العلمي التي نعاني منها أمر مطلوب . فبدون تشخيص المرض وتحديد العوامل المساعدة على تأصله لا يمكن تحديد العلاج المناسب ، ولا الوقاية المرجوة . فمرارة الدواء يتبعها إن شاء الله شفاء .

لنتفق من حيث المبدأ ، أن البداية (في المستوى الجامعي على وجه الخصوص) تكون في القسم العلمي ، فهو الركيزة الأساس . ومتى كان القسم العلمي فاعل في الجوانب العلمية كان القسم والكلية على طريق الصواب . وأقصد فاعل علميا أن يمارس بحق نصف النشاطات الآتية (على الأقل) بشكل دوري منتظم :-

- أ- عقد السمنرات نصف الشهرية لأعضائه ،
  - ب- يرسم خطة بحثية لمدة خمس سنوات ويتابع تنفيذها ، (بحوث الأساتذة ومشاريع رسائل واطاريح جامعية) ،
  - ت- لا تفصل مواد الدراسات العليا (وحتى الأولوية) حسب ما يدرسه عادة تدريسي القسم بل حسب الجديد في التخصص والمستجد في الميدان ،
  - ث- يشترك أعضائه في مؤتمرات وندوات داخل القطر وخارجه ،
  - ج- يستضيف أساتذة من خارج الجامعة لتبادل المعرفة والخبرة ،
  - ح- يستضاف أعضائه من قبل أقسام علمية مناظرة ،
  - خ- يشترك أعضائه في دورات تدريبية تخص الجديد في التقنيات البحثية والتحليلية في ميدان تخصصه ،
  - د- يشترك أعضائه في دوريات علمية تخصصية تصدر داخل القسم وخارجه ،
  - ذ- يشترك في عقد مؤتمرات و نشاطات علمية مع أقسام مناظرة و مراكز بحثية ،
  - ر- له علاقاته العلمية المستدامة مع مؤسسات المجتمع ذات الصلة .
- تمثل نشاطات القسم العلمي المشار إليها أنفا علامات صحة علمية وفكرية وأداء متفان في خدمة العلم و الوطن ، ولكي نكون واقعيين فان تنفيذها كاملة يتطلب توافر مستلزمات كبيرة بشرية و مادية . لذا لنفترض إن عدم تنفيذها جميعا يوصل إلى العقم الفكري ، (نتاج "علمي" الفائدة منه محدودة لعدم تواصله مع الجديد و لا مع المجتمع ولا مع بعضه ليشكل ستراتيجا بحثيا وهوية علمية واضحة المعالم) ، وان الإخلال بأي منها يشكل عارضا مرضيا يؤدي عند تراكمه و اتساع دائرته إلى الجمود العلمي و بالمحصلة النهائية العقم الفكري . ولتكن درجات الفقرات متساوية (رغم أن قيمها الحقيقية ليست كذلك) ، فما هي الدرجات التي تحصل عليها الأقسام العلمية ؟ وكم منها تعدى الخمس درجات من عشر ؟

فهل لدينا أقسام علمية حقيقية ؟ أم أن شماعة الوضع الأمني جاهزة لاستقبال الأعذار ؟ وكما يقال ((فائد الشيء لا يعطيه)) ففاقد "العلم" لا يعطيه ، ومن يكتفي بما ناله من معرفة



جراء حصوله بالخطأ على شهادة أكاديمية و عدها نهاية المطاف فهو أُمي وإن كان يحسن ((فك الخط)) كما يقال . ولا نتحدث عن أُمية الألفية الثالثة (الحاسوب و الانترنت) ، بل أُمية القرن الماضي . ومن كان أُمي حسب معايير القرن الماضي يبقى هكذا ليضاعفه بأُمية القرن الحادي والعشرين ، فالتخلف مركب ، والله المستعان . أليس هذا مرض ؟ هل هو مرض عضال ؟ هل أصبح مزمنًا ؟ هل يتطلب إصلاحه عملية جراحية ؟

وتكون الغصة في الحلق عندما يكون رئيس القسم "أُمي" و يحارب من يطالب بالتغيير و التعلم . والآنكى أن المؤتمرات العلمية ، التخصصية منها بالذات ، تكون المشاركة فيها مرفوضة و يحارب من يتجرأ على ذلك . فالمؤتمرات (محرمة) عملا ولكنها ما يريدون لفظا . محرمة لأنها تكشف عوراتهم وتبين ضعفهم العلمي ، و بلا خجل أو حياء يتنادون بها للحفاظ على مناصبهم ، و المحك موجود ولكنه مغيب بشئى الأعذار والحجج ، (أليسوا هم أولي الأمر والنهي؟) .

تمثل الأقسام العلمية تخصصات عامة ، و توجهات العلم الحديث نحو التخصصات الدقيقة المتداخلة العلوم . وقد اتجهت العديد من الجامعات إلى الانتقال من الأقسام العلمية أحادية التخصص إلى أقسام متعددة التخصصات ، والأمثلة عديدة ، منها على سبيل المثال لا الحصر : الدراسات الحضرية ، دراسات البيئة ، الموارد المائية ، دراسات التنمية ، الإسكان ، الاستشعار عن بعد ، نظم المعلومات الجغرافية (أصبحت حاليا علم المعلومات الجغرافية) ، و غيرها . وبعض الجامعات استحدثت أقساما تخصصية تطبيقية لتربط الجانب النظري بالعمل بشكل أكثر فائدة و عملية من صيغ الأقسام العلمية التقليدية . و جامعات اتبعت أسلوب جمع الباحثين من تخصصات متنوعة لدراسة موضوع معين بشكل فرق عمل تحت مسميات وحدات أو مراكز بحثية . وتسابقت الجامعات في هذا الميدان لتبرز شخصيتها العلمية و توجه باحثيها بما يخدم استراتيج الجامعة .

والجامعات العراقية ، مرتبطة بوزارة التعليم العالي و البحث العلمي ، أي إن واجبها مزدوج تعليم و بحث . وقوانين وزارة التعليم العالي تحت على استحداث وحدات البحث و مراكزه ، ونظم ذلك وفق ضوابط و تعليمات تفصيلية ، منها للتذكير فقط :

رقم (19) لسنة 1995

### نظام مراكز البحث العلمي في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المادة - 3 - أ . ترتبط مراكز البحث العلمي المتعددة الاختصاصات برئيس الجامعة وترتبط الوحدات البحثية بعميد الكلية .

د . يعين مدير الوحدة بقرار من رئيس الجامعة باقتراح من عميد الكلية على ان يكون من حملة شهادة الدكتوراه في اختصاص الوحدة ويتمتع بجميع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها رئيس القسم العلمي في الجامعة .

هـ . يدير الوحدة البحثية مجلس يرأسه مدير الوحدة ويضم في عضويته الباحثين في الوحدة واثنين من ذوي الاختصاص من خارج الوحدة في مجال نشاطها ، ويجوز إضافة عدد من الأعضاء ممثلين عن الجهات ذات العلاقة باقتراح من مدير الوحدة وبموافقة عميد الكلية ، لمدة سنتين قابلة للتجديد مرة واحدة .

#### المادة - 6 - يتولى مدير المركز أو مدير الوحدة المهام الآتية :

- أ . إدارة شؤون المركز أو الوحدة من النواحي العلمية والمالية والإدارية .
- ب . تمثيل المركز أو الوحدة أو تسمية مخول لتمثيله في الأنشطة داخل العراق وخارجه التي يتطلبها عمل المركز أو الوحدة .
- ج . تنفيذ قرارات مجلس المركز أو الوحدة .
- د . التوصية باختيار العاملين في المركز أو الوحدة .
- هـ . الموافقة على نشر البحوث المنجزة .
- و . إعداد مشروع الموازنة السنوية للمركز أو الوحدة وإعداد ملاكه وحساباته الختامية .
- ز . منح المكافآت التشجيعية للعاملين وفق الصلاحيات المحددة له .
- ح . الموافقة على اشتراك منتسبي المركز أو الوحدة في الأنشطة المختلفة داخل العراق .
- ط . ترشيح منتسبي المركز أو الوحدة للدراسات العليا داخل العراق و خارجه .
- ي . اقتراح استحداث أو دمج أو إلغاء تشكيلات المركز أو الوحدة .
- ك . التوصية بمنح الإجازات الدراسية داخل العراق و خارجه .
- ت . الموافقة على شراء واستيراد الوسائل المختبرية والمستلزمات الأخرى و المجالات والكتب وفقا للتعليمات والضوابط السارية .

#### المادة - 8 - تتكون مالية المركز أو الوحدة مما يأتي :

- أ . المبالغ المرصدة في الموازنة السنوية للجامعة .